ميقا سيتي

ميقا سيتي

قصص

بدرية عبد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1435 هـ – 2014 م

ردمك 978-284409-660-9

جميع الحقوق محفوظة

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية – الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

Email: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

المحتويات

ميقاسيتي قصة عن وجبة سريعة..... 7

أم الصبي.. 12

تسعينات..... 17

يوم من الشعرى..... 24

قلبٌ مقضوم..... 27

حكاية بؤس تقليدية..... 30

العُقَد..... 33

أحزان طِمِيَّة..... 38

إجهاض..... 43

ميقاسيتي
قصة عن وجبة سريعة

مارس 2013

لاشيء يمكنه أن يذلَّ الرجال ويخرّب الطباع والبرستيج مثل بطنٍ جائع، جائعٍ لم يتناول شيئاً منذ غداء الأمس.بائس أنت يا هذا الرجل وزوجتك تقضي يوماً واحداً بعيداً عنك، حتى الثلاجة تنفيك وتريدك بعيداً عنها، والفرن ينفر منك ولايريد يديك المرتبكتين.

وحين اتصلتْ سيدتي لآخذها كان الفرج، وطرتُ لآخذها حيث يمكنني أن أنعم بوجبةٍ في أي مكان، أي شيءٍ يمكنه أن يسكت هذا الذئب المفترس العاوي داخل معدتي.

ولا أدري لمَ ينسى كل رجل، كل سعودي حين يكون جائعاً، ضوابط الزمان والمكان لاختيار المطعم الأفضل، فاليوم هو جمعة، والوقت هو ظهر إلى عصر، والمنطقة مكتظةٌ بألوان البشر والجنسيات المتدحرجة على قوارع شارع هارون الرشيد بالمشروبات الغازية والدهون المتقاطرة من الأفواه.

هذا مارأيتُ أنا وهي، وأنا أقتحم مكتب الطلبات وأطلب من الحرمة أن تحجز لنا طاولة، فأنا نحيف الجسم يمكنني التسلل عبر

الأجساد، وهي سريعة الخطوات يمكنها بلوغ الدور الثاني قبل هجوم العائلات المتهادية المنتفخة المتزاحمة على بوابة (الطازج).

جاء رقمي كبيراً طويلاً وأمامي صفٌ من الرجال المتعرِّقين الجائعين، ينظر كل واحدٍ للآخر شزراً وينوي به شراً، وكأن طاولة الطلبات أسوار طروادة، وكأن الفلبيني الذي يصارع زحام الأيدي الشهباء الممدودة بالفواتير هو هيكتور الرهيب، يمنعهم أن يقتحموا عليه خلية طعامه العابقة بالقلي والشوي والكبس والصراخ والشجار.

هذا المنظر البديع من معركة الصراع من أجل البقاء انقطع بصوت شبشب زوجتي ينزل ببطء الخيبة درجات السلم، لاتوجد غرف للطعام...

والآن سنضطر لأخذ الطلب (تيك أواي)، وأين سنأكل مثلا؟

- في أحد الحدائق..

فكرةٌ جميلة والله، فقد مر بنا زمنٌ طويل لم نجلس خارج شقتنا الضيقة، وهاقد جاءت لنا النزهة برجليها..

صفٌ متململٌ من الأطفال المستنسخين من أبٍ واحد، تشعر وكأنهم فيلمٌ وثائقي عن حياة إنسان، صغير كبير، أكبر، أكبر الجميع، يتململون بملل وهم يتدارسون الطلب.

أب متلمظٌ ضئيل الحجم في منتصف أربعيناته، بيمينه ورقة، وعن شماله طفلٌ يعوي ويتدلل، الأب ذاهلٌ في مراقبة رقم طلبه، وإذ جاء طلبه أخيراً اختفى في ثقبٍ من الزمن، ثم انبثقتْ الأرض عنه مرة أخرى حاملاً صينية طلبه وهو يقود الطفل المدلل أمامه..

حقيقة، وفي لحظات الانتظار تلك، يمكنك أن تصنع فيلماً من وجوه الناس وهي تترقبُ في لهفة..

الرياض كلها كانت في (الطازج) في تلك اللحظة، وروائح القلي تعتبكُ بروائح المكيفات وهمهمات الجائعين وأنين الأطفال.

أومأتُ إلى الحرمة أن انتظري في السيارة، وانتظرتُ أنا أمام الباب أنظر إلى هذا الخلق ..

ارتطم كتفي بزجاج الباب إذ فتحه شابٌ يمسك يد والده الكهل، اعتذر بلطفٍ وانسحب، وأنا أتخيلني بعد عمرٍ طويلٍ في مثل عمر الكهل..

هل سأزور (الطازج)؟

هل سآكل في (الطازج) حين أبلغ من العمر ما بلغ؟

لست أدري ماالهاجس الذي جعلني أغوص في تلك الصورة، وأتخيل جسدي النحيل وقد ارتخي، وتعاظم حجم أكتافي، وانهدل أسفل بطني، وتكوّنتْ لدي ذقنٌ ثانيةٌ وثالثة ...

والدهن يتكدس في فمي وأنا أظنني أستمتع بالحياة..!

ربما لشدة ماكانتْ الصورة مخيفةً ومرعبةً فكرتُ لوهلة أن أنسحب وأهرب. ولكن ذئبة الجوع الكافرة في بطني سخرتْ مني وقضمتْ لحمة معدتي بوقاحة، وانتهيتُ إلى نفسي أزور دورة المياه لأضيع بعض الوقت.

غسلتُ يدي ونظرتُ إلى وجهي، ودققتُ النظر في كل شعرةٍ مرتكزةٍ في خدّي وأنا أعدُ نفسي بحلاقةٍ متقنةٍ بعدما أسكت هذا الجوع..

جاء رقمي أخيراً، وخرجتُ بغنيمتي وأنا أسبُّ وأشتم وألعن وروائح الشوي تطيّر ماتبقى من عقلي.. وانطلقتُ بالسيارة والحرمة تمسكُ لي بكيس البطاطس المقلية، عسى أن لاأقضم أصبعي دون أن أشعر.

فرغنا من الزحمة في الطازج فأين نجلس الآن لنأكل..

طوتْ بنا السيارة كل طريقٍ ممكن، نبحثُ عن خضرةٍ أو منتـــزه، المنتزه الوحيد الذي نعرفه تحت الصيانة.. ولم يتبق لنا إلا قوارع الطريق ومواقف السيارات في المول القريب، حيث تفترشُ العوائـــل الكـــبيرة السعيدة، وتشوي وتطبخ في الهواء الطلق، وتتناول الشيشـــة بالضـــبط تحت لوحة (ممنوع الجلوس منعاً باتاً).

أطفالٌ من كل عمرٍ وجنسٍ ولونٍ يتزلجـــون فـــوق الأرصـــفة والمطبات المتسخة ببقايا افتراشات العوائل على مر السنين، لاشيء يسرُّ العين، وأكوامٌ من زبائل تختلط باكوامٍ من ركام البناء علـــى جوانـــب مناطق تحت الإنشاء.

رغم ذلك أجد بشراً، أجد في كل بقعةٍ سيارةً ورأســـين لرجـــل وامرأة يلتهمان شيئا، وحولهما أطفالٌ يقفزون حبوراً.

من أي مكان دخلوا؟!

كيف وصلوا إلى تلك المنطقة المعشوشـــبة بالزبائـــل والنفايـــات والحجارة؟

كانتْ ذئبتي الكريهة قد خمدتْ بفعل قطع النقتس وتغميســـاتها الحارة التي بقّعتْ ثوبـــي وشماغي.

حقاً يُفْقِدُ الجوع الإنسان وقاره ونظافته، في أقلَّ من ساعتين..

ركنتُ السيارة واليأس يأخذ مني كل مأخذ، والزوجة تقـــرمشُ قطع النقتس معي.

مابدهاش..دعينا نأكل في السيارة يا سيدتي..

فرشتْ الجميلة كيساً على حضني على عجل، وساعدتني علـــى تشمير أكمامي، لأنني وبكل صراحةٍ لمْ أكن قادراً على فعل شيءٍ غير الأكل تلك اللحظة.

ذلك الخمبليط الذي انتهينا إليه، أنا وهي، والجو يخلو من أي صوتٍ إلا صوتُ قضمنا وخضمنا والتهامنا كان مثيرا للسخرية.

الأرض أمامنا ممتدةٌ بلا انتهاء، ولكن لامكان لنا فيها..

الرياض، كل الرياض، قارٌ ورصيف، وأراضٍ بيضاء مملوءةٌ بالزبل والناس، لم نجد عليها متراً نأكل عليه..

هل لهذا معنى؟

عدلتُ وضع كرسيي إلى الخلف، لأمنح بطني وساقيَّ مزيداً من المساحة، ووجدتُ أن سيارتي الصغيرة التي تنتقدها زوجتي دائماً، قد اتسعت لي مالم تتسعه الكرة الأرضية كلها..

ووجدتها قد رحُبَتْ بي وبفوضاي، وبما تقاطر من فمي وأصابعي، من الصوص وفتات الخبز، مالم ترحُب به مدينةٌ متسعةٌ مترهلة الأطراف..

المجد لسيارتي الصغيرة، والمجد لعالمي الصغير المكوّن منّي، ومن السيدة التي تشاطرني حياتي، وبقعتي، وبقع الصوص فوق ثوبي..

المجد للمسكينة بجواري، وهي تنظر إليّ سعيدة بكل هذه الفوضى والوسخ، وتلتهم الخبز والدقيق يرمّدُ عباءتها السوداء..

كان منظرنا دافئاً وطريفاً، وجميلاً، وكأنَّ الله قد جمع العالم فينا..

في سيارتنا المتكعبرة، التي تتوقف عن العمل كل كذا كيلو مترا..

شعرتُ بالسعادة تغمرني لدرجة أنها طفرتْ مني ضحكة، وندَّتْ عنها ضحكةٌ بدورها..

ضحكنا لدرجة أن اهتزتْ بنا السيارة التي أصبحتْ كرتنا الأرضية..

لم يعد يعني لنا كل الفراغ حولنا أي شيء..

أم الصبي..

ديسمبر 2009

إلى أرواح شهداء فيضان جدة..

طالما توقعتُ أن يكون الموت صعباً، بل طالما روّعتني هذه الفكرة وأشغلتني من عمري سنين.

ولكنه حين جاء كان أسهل وأكثر حلاوة مما توقعتُ..

بل أسهل من الحياة في الحقيقة..!

***

أنا أم..

بكل بساطة...

مثل ملايين النساءات حول الأرض..

الفارق أنني أنجبتُ طفلاً محبوباً، وردي الشفتين والخدين.

وعندما ولد ظننتني قد امتلكتُ مفاتيح الأرض..

وحتى السموات فتحت أبوابها لي وهنأتني حين شممتُ رائحته حين سقط...

وحين زارتني النساء أخبرنني أن أغطيه من العين والحسد..

ورجوَن الله أن يعوضني فيه خيراً عن والده الذي فارقني وأنا أحمله وهناً على وهن..

وحين أتيتُ به أسود الشعر أبيض الوجه عرفت أنه نوري وظلمتي، سعادتي وشقائي...

حياتي وموتي...ويني ويابي..

والحق يقال أنني اهتممتُ كثيرا لموضوع العين هذه.

وكنتُ كما روتْ أمي لي عن أولادٍ كثيرين أصيبوا بالعين من نفس فصيلة ابني..

كنت أعرف أنه حوريٌ من طيور الجنة.. أنه كائن غير أرضي، أو شيءٌ جميل من الجنة وقع مؤقتاً على الأرض وسرعان ماسيعود لمرتعه في الفردوس، ويترك فراغا مرعباً من الوحشة في عالم الوحشة الأرضي..

والمذهل في الأمر أنه كان يكبر، وحبه يكبر، ويشغلني عن مزيد من التعاويذ والقراءات التي أحصنه بها..

وكأنما كان النور يكبر ويشغلني، ويجعلني أجوع إلى وجهه أكثر، وإلى لعبه ورائحته أكثر..

وكنتُ أتذكر أنني وأنا في عملي، أجوع إليه، فأهرع لأحادث أمي فتضع السماعة على أذنه وأسمع أنفاسه وصوت مخاطه يتصعَّد ويئز ويتحشرج في أنفه المفلطح.

لا أدري كم مرَّ من الوقت ونور ابني الحوري يغمرُ حياتي ويذهلني عن كل شيء..

يذهلني حتى عن الخوف والحب والتفكير..

نورٌ على نور..حبٌ على حب..وبياضٌ على بياض..

***

ولأنني حدثتكم قبل قليل عن الموت وكيف كان يروّعني مجـــرد التفكير فيه، فإن ابني قد ساعدني لأتغلب على هذا الشعور أيضاً

كنت أقول في نفسي أنه إن عاش ابني وأنجب أبناءً من نور كمـــا أنجبته فلا ضير علي إذن من الموت..

أتذكر أنني كنت أضع المسجل وهو يرتل سورة الكهف ومـــريم على بطني..

وتخبرني صديقاتي أن طفلي سيكون أهدأ وأسهل مراناً لو فعلـــتُ ذلك...

وقد كان أفضل من كل ذلك..

حين حانتْ ساعتنا كنتُ وإياه محتجزين في زحامٍ مروري عظيم في شارعٍ عام..

وكنت قد عدتُ به من جمعة زميلاتٍ أثنين عليه ومدحن وسامته كثيراً..

مدحن- كثيراً لدرجة الإخافـــة- شـــعره الأســـود، ووجهـــه الأبيض..

كنا في السيارة، رأسه على صدري ونستمع ســـورتي الكهـــف ومريم..

حين فُتحتْ السماء، لم أشعر بالرعب أولاً، ولكن ابني كان يبكي ربما للمرة الأولى في حياته هكذا..

هل كان يؤلمه شيء ما؟ لقد كان قلقاً، ولا أدري إن كان يعرف فعلاً ماهو القلق..

كان يرفع عينيه نحو شيء لا أراه ..مرةً يبتسم ويضـــحك..ومرةً يقشعر ويبكي ويدسُّ رأسه في صدري..

حين مرَّتْ ساعة الازدحامات والاصطدامات، وبـــدأتْ الأرواح

تتصعد في السماوات أمام أعيننا، وبدأتْ الأجساد الهلعة تركض بعيداً عن الموت وعن الطوفان الذي فتح فاه ليكتسح الأجساد ..

حين حصل كل ذلك كان ابني ساكناً، صامتاً يرتجف برداً..

نـــزلتُ من السيارة كما فعل الكثيرون، وركضتُ وابني علـــى صدري، أبحثُ عن مرتفع يعصمني من الماء..

وجدتُ جبلاً، وجدتُ أناساً يتقافزون فوق سياراتٍ، ويتشـــبث بعضهم ببعض للقفز فوق جدران منازل..

رأيتُ أيدٍ تتشبثُ بجدرانٍ ومركباتٍ ثم تهوي في المياه ..

رأيتُ أجساداً مطينةً، تتشبثُ بها أيدٍ مطيّنة، فتـــهوي الأجســـاد والأيدي معاً..

والموت يضحكُ ساخراً ونسمع ضحكاته من بعيد، ويهلع القوم إلا أنا وطفلي..

رأيت صراخاً يتجمدُ في حلوق ملأها الماء، وأجســـاداً كســـاها الطين اللامع تتشبثُ وترتجف..

ثم رأيتُني، يرفعني المدُّ والطين يتكومُ تحت قدميَّ، حـــتى تنعـــدم الأرض من تحتي..

وشيءٌ على صدري يتخبطُ، وأرفعه بيدي لأغطس أنا..

لم يبكِ و لم أبكِ، كان يحاول-فقط- أن يتشجَّع ويشحذَ نَفَســـاً قبل لحظة الموت..

أما أنا، وقد رأيتُه يختار ذلك، فقد طار صوابـــي، وأجمعتُ أمري أن لا أتركه يفعلها مهما كان الأمر..

ثم إنني رأيتُ يداً ترفعني من الأسفل، وتـــدفعني باتجـــاه شـــاحنةٍ ارتطم بها وجهي، وتشبثتْ يداي الفارغتان بها وأنا أبحث عما انفلـــتَ من على صدري..

صدقوني أن الأمر لم يستغرق ثانية، حينما اشـــتبكتْ الأيـــادي لترفعني بتلابيبـــي وأطراف عباءتي، وصوت صرخاتٍ وفزع، ورائحة موتٍ طينٍ تملؤ أذني وأنفي..

وطوحتْ بـــي الأيادي فوق صندوق الشاحنة، وشيءٌ حـــارقٌ يجعلني أصيح باسم ابني..

ولأني أعرف لون يديه فقد رأيتهما تتخبطان في محاولة أخـــيرة، ورأيتُ أيدٍ كثيرةً تتخاطفه كما تعوم زعانف القروش حول الضحية ..

لم يستغرق الأمر مني أكثر من ثانية لأقرر أن أرتطم مرة أخـــرى بالماء..

أغوص في الطين ويملأُ ريحه فمي وأنفـــي، وأصـــوات العمـــال والرجال تهتف بـــي للعودة..

حين صفقتْ يدي الأمواج مرة أخرى، وأيـــدٍ كـــثيرة تجـــذبني للأسفل، وأنا أقتربُ أخيراً من ذراعي ابني..

قررت أن أموت..

في تلك اللحظة اشتبكتْ يدانا..

رفعته من ذراعيه والأيدي الكثيرة ترفعني للأعلى وأنا أرفعه..

أرفعه للسماء، وهو يطير ويرفع ذراعيه، وبياض وجهـــه يصـــبح أبيضَ، وسواد رأسه يصبح أبيض ..

حيث كان طعم المطر والتراب والطين لذيذاً كما لم أتذوقه مـــن قبل..

وحيث كانت خضرةٌ لا نهائيةٌ تغمر كل الأرجاء..كلها..

تسعينات

يونيو 2011

نظرتْ في المرآة للمرة العاشرة، وهي تحاول أن تعـــدِّل مـــيلان التنورة الكئيبة على مؤخرتها الهزيلة..

حاجباها العريضان يتوضَّعان تحت نظارة سميكة، تنتفخ خلفهـــا عيناها لتبدوا كعيني النمس (تيمون)..

وتعبس وهي تتفقد الشعيرات السوداء الخفيفة التي تملؤ وجههـــا الأسمر النحيل، من فوق الشفتين وحتى أسفل صدغيها الذين يتصـــبب من تحتهما – وفي حر صيفيةٍ لاهبة– زيتُ شعرها الخفيف البالغ النعومة الذي لم يقص منذ طفولتها.

تسمع صوت أمها يلعلع في الأسفل، فتهرع للشـــماعة لتبتلعهـــا عباءتها الفضفاضة وغطاءها الطويل، وتطير بخفة فتاة العشرين نحو الجمس الذي تندفع داخله أجسادٌ بمختلف الأحجام، حيث على جسدها النحيل الضئيل أن يجد مكانه في هذا الخمبليط الـــذي لايـــرحم مـــن إخـــوانٍ يتجاذبون أوراق اللعب، ويشتم بعضهم بعضاً بالكلمـــات والخمشـــات وشيءٍ من البصاق على استحياءٍ وخوف من المجيء الثقيل للأب.

يأتي الأب بنظَّارةٍ مربعةٍ ثقيلةٍ وخطوةٍ ثقيلةٍ وعبوسٍ ثقيل، تخفتُ الأصوات تدريجياً وهو يلقي نظرةً حارسة حذرةً على حريمه، يتمـــتم

بشيء، وثم يتشبث بالمقود، يغوص رأسه المربع في كرسي السائق.

أما هي فتغمرها نشوة رائحة البنزين، وتدغدغ أصوات دعدعات الجمس معدها الفرحة بالتمشية الأولى منذ شهرين، يتحرك الجمس ببطء، ويهز معه الرؤوس الصامتة باتجاه الاستراحة.

***

مضى وقتٌ طويلٌ منذ رأتْ رجلاً حقيقياً ثلاثي الأبعاد، أي في غير شاشة التلفزيون، منذ بدأتْ مراهقتها وأصبح لها غرفتها الخاصة وعباءتها وغطوتها، ومنذ أصبحتْ تضع رأسها على المكتب الحديدي الصديء الجوانب لتكتب وتشخبط على الأوراق وتحلم.

تضع مسجلها الخاص وتستمع لما يقع في يدها، محطات راديو، أشرطة محاضرات، أناشيد، موسيقات تسرقها خلسةً خوفاً من نظرة الإخزاء والعار في عيون إخوتها الأصغر، وخوفاً من الوشاية..

تعبر عيناها مذاود الإبل والرعاة ذوي الأجسام النحيلة المحروقة بشمس صيف هائل السعير، فيما رأسها يهتز في الجمس الضخم، وفي داخل رأسها تساؤل يجلب الصداع:

-أهؤلاء الرعاة على امتداد البصر بدوٌ كما يقول أبوها؟

ولا ترى في رؤوسهم التي تمرق من أمام عينيها سريعاً إلا عيوناً حمراء تتقلب تحت صهير الشمس.

همستْ لنفسها: هل يمكن أن تكون هذه الوجوه وجوه بدو كالذين نراهم في المسلسلات؟

يغمغم الوالد بكآبةٍ مزمنةٍ، وعيناه توبخانها في المرآة الأمامية: ماذا؟

تستجمع جرأتها وتهمس بابتسامةٍ وجلة:

– كنتُ أقول لا يبدو هؤلاء الرعاة بدواً، يبدون مثل هنـــود أو أفريقيين.

يلقي الأب نظرةً مربّعةً منقوعةً بالثقـــل في المـــرآة الجانبيـــة، ثم يغمغم بصوتٍ موبّخٍ منتزعٍ من كبد الكآبة، متسائلاً عن جدوى مافي رأسها:

– وأنتي وش كارك هنود ولا بدو ولا غيره؟

وكما لو لم يوبخها، عادتْ عيناها تحملقان في الجزء المربع الظاهر من رأسه الغائص في المقعد، وذبابةٌ مشاكسةٌ تصارع هـــواء النافـــذة، وتحوم على العقال القديم الذي يطوّق الشماغ الأشهب.

تنظر بلا مبالاة إلى اليدين المشعرتين المربعتين تتعلقان بـــالمقود في اكتئابٍ لا شفاءَ منه..

غاصتْ كآبةٌ معتادةٌ في معدتها، وقطرة عرقٍ ضخمةٌ تنتظر فـــوق شفتها العلوية المشعرة..

وعيناها تنشغلان بنفس الرعاة ونفس التساؤل..

***

في الاستراحة تحدِّق طويلاً في الرؤوس التي تتناطح، والشفاه الـــتي تفرقع قبلاتها في الهواء، قبل أن تقفز من مجلس الملل حين حان دورها في دورة السلام، لتنطح القادمات برأسها وتفرقع قبلاتها حولهن بشفتيها في روتين وذبول..

لاذتْ ببيت الشعر حين ازدحمتْ النساء على البوابـــة، وجـــدتْ الأطفال النيام يتوزعون على الأركان في أوضاعٍ مختلفةٍ وبأغطيةٍ مهملة،

والذباب ينهشُ نومهم المضطرب ويتجمَّع فوق مصّاصاتهم الملوثة ورضاعاتهم المنسكبة على الأرض بجوار أفواههم البيضاء.

لم تكترث وهي تتربع بخفةٍ بجوار أحدهم، وتمنّتْ أن تمرق سيدةٌ من ذوات الأولاد في سن الزواج فتطمع بها للخطبة..

لم تجلس مع البنات في سنها، فقميصها الفضفاض وتنورة الجامعة الكئيبة لا تمنحانها الحضور الكافي بين شعورٍ منسدلةٍ ومصبوغةٍ وتنانير أنيقةٍ ذواتِ فتحاتٍ مبطنة..

كما إنَّ أغلبهنَّ -وهن يكبرنها ويصغرنها بشهور- مازلن في الثانوية، والملل المصاحب لسواليف المدارس لا يطاق..

تنظر في فم الطفل الذي في الركن المقابل، مملوءاً بحليب متقاطر، حلمة رضاعة تنزلق من بين شفتيه، وحولهما سحابةٌ من ذبابٍ لايشبع..

تحدِّق فيه، وهو ولد ابنة عمها البيضاء السمينة الأصغر منها بسنة، والتي تزوجتْ قبل سنتين، وتركتْ أمها تندب بشرتها السمراء وعظامها الهزيلة، وحبة الخال المستعارة التي توقّع بها شفتيها المشعرتين بما تبقى من قلم كحلٍ ذهبتْ بلبِّه البرّايات..

تراقبُ الذباب يدخلُ ويخرجُ من فم ولد ابنة عمها، يلتهمُ وينهشُ أنفه الصغير ليفركه بيده المكورة البيضاء بلا حيلة، يفيقُ الطفل نصف إفاقةٍ، ثم يعود لنومٍ قلقٍ قبيحٍ في عصريةٍ مسعورة الحر ممزوجة بصوت مكيفٍ صحراوي تتراقص أسنانه مع موجات الهواء الساخرة..

جالتْ عيناها البلهاوان في أرجاء المكان السوريالي، بأصواتِ النسوان المتداخلة، بزعيقِ زوجة العم الكبرى، بسبابِ أطفالٍ ذوي ثيابٍ وسخةٍ وسراويل سنَّةٍ صفراء الأطراف.

استوعبتْ كل ذلك فانفجرتْ سخريتها ضحكاً..

وفي آخر ثانيتين من ضحكتها بترتها، وإحدى الحريم تلقي نظرة استنكارٍ جارفةٍ مجوّفةٍ على المخبولة التي تضحك لوحدها في بيت الشعر..
وجرفها طوفان عرق الإحراج مرةً أخرى..

***

غاصتْ عيناها مرةً أخرى في فم الطفل القذر، فقامتْ هذه المرة لتصلح من شأنه والتقزز يرتسم أخيراً على وجهها الأسمر، تلتقطُ غطاءه الصوفي وتمسح الحليب بضغطةٍ قويةٍ فوق فمه، يفتح عينيه، ينظر في وجهها ثم يصرخ فزعاً.

تبتسمُ وهي تعيد الغطاء فوقه في تلقائية، وتهرب لمكانها من جديد، ونعيبُ الطفل الفزع يعلو ثم يهدأ، وهو يستندُ بيديه المكورتين على الأرض، يقفُ ثم يتأرجحُ كبطريقٍ ساحباً الغطاء الصوفي، تتبعه أنّاته المحتجة باحثاً عن ماما..

وملأتْ رائحة الحليب والحر المكان.

فجأةً صدر صوتُ نشنشةٍ كهربائيةٍ من إحدى المصابيح، التفتت وهي تستوي جالسةً لترى مصباح السور ينفجرُ بتكّة مكتومة، محدثاً شعلةً صغيرة، وركضتْ طفلةٌ هلعة:

حاااااريييقة ...حاااااريقاااااة..

هلعتْ النساء، وتراكضن شذرَ مذر، من تلتقطُ العباءات، ومن تجمع بناتها للمغادرة بصوتٍ واجفٍ مرتجفٍ حذر الموت، ومن تبحث عن حذائها وهي تصرخ في أطفالها.

انداحتْ الأمهات في صراخٍ هلعٍ في بيت الشَعَر، كل مرضعةٍ تبحث عما أرضعت..

بينما وقفتْ هي تنظر للمشهد القيامي، بدءاً من المصباح المشتعل، وانتهاءً بأفواه النساء اليابسة خوفاً..

تنظر إليهن في لا وعي بعينين فارغتين..

ألقتْ نظرةً حولها وجذبتْ عباءةً ما، وعيناها تفحصان النساء الممتلئاتِ اللاتي تدافعن على البوابة بلا عباءاتٍ ولا أحذيةٍ وسيقانهن البيضاء المكتنزة تتكشَّف هلعاً من تحت التنورات، وصرخاتهن تملأ المكان.

فردتْ العباءة، وانفردتْ معها رائحةٌ نفَّاذةٌ غير زكية، ووضعتها على رأسها فبدتْ قصيرة، وافترضتْ أنها لإحدى بنات أم سليمان ذوات القامات المتدحرجة، واللاتي يندفعن للخارج متكوماتٍ كالوسائد تحت عباءةٍ واحدة..

ومن بين أمواج الهلع والصراخ والحريم، رنَّ صوتٌ لذيذ الخشونة في أذنيها الظمآوين:

– على وين يا حريم؟ ادخلوا، ادخلوا داخل يا حريم..

على إيقاع الصوت الخشن الموبِّخ، افرنقعتْ النسوان الهلعات كأطفالٍ مذنبين، واختفتْ خشخشات أرجلهنَّ الحافية الذليلة في الأركان..

بينما صوت النعلين الخشنين يرنُّ في المكان بتؤدةٍ تجلبُ الهيبة والانبهار..

مطّتْ عنقها الطويل، حتى كادتْ تنقطع حبة الخال الضخمة التي تتوسطه، كله في محاولةٍ شغفةٍ لتفحّص أول رجلٍ تراه على الطبيعة منذ سنين.

رفع الثوب الأبيض عن سروال طويل تحته ساقان خشبيتان مشعرتان قويتان، وخلع إحدى فردتي الزبيرية ليضعها على عصا مكنسة، ويخبط بها مكان الحريق في رتابةٍ وتؤدة.

وانطفأتْ النار التي كادتْ أن تبيد طائفة الحريم، في ثلاث خبطاتٍ من نعل رجلٍ واحد..

تحلقتْ النسوان حولها واندستْ بعضهن في عباءتها حذر الانكشاف..

هي ماتزال تحدَّقُ على بعد عشرة أمتار أو أكثر في الوجه الخشن الأسمر المشعر والعابس عبوساً كريهاً، تلتهم عبوسه وكآبته بشغفٍ كبيرٍ يتوقَّدُ في قلبها البكر.

يرمي بإهمالٍ فردة نعله على الأرض، ويلبسها والعبوس والتجهم يزداد على وجهه وهو يتنحنح بأعلى صوته:

- يا ولد..حاااع..يا ولد..

وفي تؤدةٍ وهيبةٍ تبتلعه البوابة التي تفصل قسم الحريم عن الرجال..

يوم من الشعرى

يوليو 2011

ويومٌ من الشِّعرى يذوبُ لعابه---أفاعيهِ في رمضائه تتململ..

***

في الطريق على امتداد جامعة الأميرة نورة.

حيث قفارٌ من الحصى وبقايا الإسمنت ومستشفى لا أذكر منه إلا أنه ماتت فيه أم زميلتي.

تتربع تلك الملفوفة بعباءها الأشهب.

وصهير الشمس يتدفَّقُ على ما برز من تربيعتها المرتبة..

لا شيء منها يتحرك..

حتى لتخالها آلةً نصبتْ للسؤال، لا يتحرك منها عظمٌ ولا يختلج فيها عرق..

لم يشعرني مروري عليها كل يوم بالشفقة، لا والله ولا حتى تحرك قلبي تجاهها بغير شعورين هما:

الغضب والحيرة..

هي تجلس منذ سكنْتُ هناك جلسةً بلا معنى..

من الصبح الصابح، حيث الكل يطردُ الوقت قبل موعد الخط الأحمر..

وأشعة الشمس في الصيف، تتساقط في مرحٍ كقطرات من فيح جهنم، تنقِّط شيئاً فشيئاً من الثامنة صباحاً نكايةً بأرض الرياض، وإلى أن تتكون حمماً متدفقةً على الساعة الثانية.

حيث المرأة ذاتُ العباء الأشهب ما تزال في مقعدها الذي بلا معنى.

غضبي وحيرتي هو لأنها تجلس في نصف خط الخدمة..

وعلى أرض أراهن أنها تسام الآن بالعشرين مليون والثلاثين وأكثر..

وجيرانها آلاف من الحصى والبلوك وحطام الخشب..

حيث تتوزع في تلك الأرجاء ظلالٌ وأماكن يمكن لرأسها المرهق أن يشحد مرتاحاً، فما لزوم الشمس والعذاب تحت السعير؟

هل هي ترغب أن تستدر عواطف المارين بعذابها وبؤسها؟ باختيارها الأكثر بؤساً لمكانٍ لا يمكن لسيارة أن تتوقف فيه؟ إلا بحادث مثلاً لاقدر الله؟

حتى سانتا كلوز، وحتى الغزيّل، لا يمكنهما أن يهبطا عليها هناك، وإلا لخطفتهما شاحنةٌ محملةٌ بأحجارٍ منتزعةٍ من أكباد الجبال، في طريقها لأن تصقل وتوضع في مدخل مزرعةٍ شبعانةٍ يملكها هامورٌ ما..

هل ذات العباء الأشهب حقاً تبيع قوارير ماءٍ تختبيء في تلك الثلاجة الزرقاء المغبرَّة؟

مليون سؤالٍ عبرتْ رأسي وانا غاضبةٌ من كل شيءٍ يحيط بها وهي في سرمدها الشمسي، قابعةٌ وسط كل ذلك الصفار المزعج للعيون، القابض للأعصاب..

نسيتُ أمرها زمناً حتى أني لم أعد أميزهـــا مـــن قطعـــة الأرض الثمينة..

وهي بالمناسبة أرض تجارية، عليها راس بلك ولوحة (للبيـــع) لم يهزها حتى طوفان الرياض عام 2010.

وربما لم يفلح الطوفان في إزاحة المـــرأة ذات العبـــاء الأشـــهب أيضا...

واليوم رأيتها، وتذكرتُ كل أسئلتي السابقة الممزوجـــة بزهـــق الصيف، وحرارة الأنفاس المتصاعدة تحت النقاب..

هذه المرة كانتْ تجلس متخشبةً تحت شمسيةٍ زرقاء اللون، خففتْ قليلاً من ملل لوحة الظهر المسجور..

لم أحمل عليها غضباً سائر اليوم..

قلبٌ مقضوم..

يونيو 2012

شغوف..به.. بكل ما يتعلق به..

***

كانتْ قد أقسمتْ في سرها، وهي تقبِّلُ عينيه في نوبة شغفٍ ليلية وهو يتقلب مصدراً شخيره المحبب.. سأكون سعيدةً فقط لو كان سعيداً..

تكره إدمانها للتفلسف وتفسير الحياة، وجعلها محاصرةً محددة بالأسئلة، ولكنها سألتْ روحها وهي تقطع العهد:

- حتى وإن كان سعيداً بعيداً؟

صمتتْ قليلاً وهي تريح رأسها على الوسادة، وتتأمل العينين المرهقتين النائمتين في وداعةٍ وهي تقول:

- حتى وإن..!

***

منذ عرفتْ نفسها وهي تعدُّ نفسها لفراقٍ بعد كل لقاء..

حين تزوجتْه وعشقتْه بكل خلاياها، وحين نذرتْ نفسها لأن تجعله أسعد إنسان في الحياة، لم تدرِ ما الذي جعلها تشعر بكل هذا، وتنذر كل هذه النذور..

فهو لم يكن فوق غيره من الرجال، لا ولامختلفاً عن غيره من العالمين..

هو نفسه لم يفهم بأي شيء استحقَّ كل هذا الحب..

أما هي، فطالما عرفتْ نفسها شغوفاً، حين تحب، تحب بكل خلاياها، ولا يرهقها أن تشغف..

كانت مصنوعة من الحب، وحين انشغلتْ به، أدمنتْه، جعلتْه في خلاياها، يتنفس..

يبتسم وينام..ويشخر...

وبدلاً من أن ينتابها الملل كما يفترض، أصبح الشغف ينمو ويتمدد بلا انقضاء..

حين لم يعدْ تلك الليلة، وقد عرفتْ ممن حولها أنه بدأ يجرب حياةً أخرى مع امرأةٍ أخرى..

لم تغضب، لم يسمح لها شغفها أن تغضب.

احتضنتْ ملابسه التي تحمل رائحته المحببة ببساطةٍ ونامتْ معها..

وفي الصباح..نظرتْ إلى صورة وجهه المملوءة بابتسامة أدمعتْ عينيها..

عاد بعد أسبوع، ولم يعد كما هو.

خجلٌ في عينيه وفي وجهه وقلبه، يمنعانه من أن يساطعا شغفها القاسي، وابتسامةَ شفتيها اللتين تعشقان طعمه.

تستقبله بالشغف ذاته، بالقهوة والمشية العرجاء التي اكتسبتها من سنواتها الخمسين، وتهشُّ وتضحك، وتبارك..

ونظراتٌ حقودٌ في عيني ابنتها، مع كل كلمةٍ منقوعةٍ بالشغف تتساءل عن سببها..

– لم تفعلين ذلك يا أماه؟ لم تحبينه هكذا؟

لا ترد ... بل تضحك ...وتعود لشغفها..

وترمقه وترمق وجهه المحمرَّ خجلاً وهو يقلب التمر في الصحن صامتاً..

تفتقده وهو أمامها، يرشف فنجاناً ويتسلَّى ببعض الكلمات مع الولدين الحانقين الغاضبين، كأيتام دمّرت قذيفة مدينتهما..

والبنت التي تنظر في حقدٍ لا تدري أهو عليه أم على أمها..

وينصرف كضيفٍ ثقيلٍ وهي تتابعه بعينيها وابتسامتها وشغفها..

ثقلٌ عظيمٌ في قلبها وهي تتحسسه وتتساءل عن الفراغ الكبير الذي تحاول ملايين المشاعر أن تغزوه وتستغله...

حتى الكراهية حاولت أن تغزوها ولكن الشغف كان أقوى...

والعهد الذي قطعته على نفسها كان أوقع...

لكن فراغ القلب لا تملوءه حتى روائح ملابسه التي ترقدُ بجوارها....

ولا تملوءه القبلات العاجلة التي يطبعها في لهفةٍ وسرعةٍ حين يطلُّ بين الحين والآخر من نافذة حياته الجديدة...

سعيد؟

هذا هو المهم في القصة كلّها..

حكاية بؤس تقليدية

يونيو 2013

كعنكبوتٍ بثمانية أعين...
كانتْ تنظر إلي..
وبعينين فقط...
كنتُ أنظر إليها..

***

بين ركام الناس والبضائع ومخلفات الكراتين الضخمة.. كانت تقبع بكل عناصر مشهدها الباهت الألوان..

بنيةٌ صغيرةٌ تبيع شراشف صلاةٍ ومرطباتٍ مغمورةً بالثلج في طشتٍ كبيرٍ مغبر..

أنظرُ في عينين صغيرتين أحاول اختراقهما..
عمرهما لاأكثر من خمس أو ست سنين...
عينان متشحتان بالسواد والبؤس..
عينان تحسبان..

تترقبانِ وتراقبانِ أيدي الأطفال الأكبر منها والأصغر، وهي تغمس في الطشت القذر...

تحرسان البساكيت والفشارات المغبرَّة الأغلفة...

تتحفَّزان حين تقترب يدٌ تحملُ الريالات المجعدة...

تقفزانِ حين تكون خمسةً أو عشرة...

تحاسبانِ وتلبِّيانِ الطلبات...

ثم تجريانِ كي تحضرا الفكة...

عينان تتقلبانِ من بين ذراتِ الغبار وقطراتِ العرق...

عينان بثمانية أعين... بل بألف عين..

تتفرجان على مئات الأيدي تجيء وتروح...

سماطات...شراشف...سلال ياحرمة...تفضلي وشوفي..

عينان لطفلةٍ في السادسة..

تساوم...وتغش..

حتى الغش تعرفه هاتان العينان الصغيرتان...

وجدتني أحدِّق في عينيها...

أكتشف أني لو مكثتُ عمري كله...

أقرأ ..أبحث وأتفلسف..

فلن أقطع من العمر ماقطعته هاته العينان...

ولا نحويٌ متحذلق يمكنه أن يُعربَ تلك الخبرة..

والتنهيدات التي يرددها الصدر العظمي الصغير في انتظار مشترٍ..

والشيء الغائر في تلكم الروح البئيسة...

***

امتدتْ إليها خمسة أريل..

تسمع من خلفها امرأة ذات برقع:

ياورع خذ البس وخلها ترجعلك أربعة أريل...

يقفز البؤس الغامر في العباءة الضئيلة المشـــهبة بغبـــار البـــائعين ونفاياتهم..

تتحفزُ العينان كما تفعلان طول العمر..

تشمِّران عن ساقينِ نحيلتين ممصوصتي النخاع..

تجلبان الفكَّة...

تكملان رحلة اليوم..

تكتبان قصة بؤسٍ مكرورةً ومعادةً حتى الملل ..

العُقَد..

مرَّتْ به عشرون سنة بالضبط، المحل هو المحل، ومكينة السنجر هي المكينة، والباب الحديد الصدئ الذي لايعرفون كيف يعبر منه كل يوم لينصبَ أمام نافذةٍ صغيرة..

يرون منه لحيته الضخمة البيضاء وهو يعالج الأقمشة، يشرحها طولاً وعرضاً يبسطُ منها ويطوي في صمتٍ طويل..

أهل الحارة يرتعدون لوقوفه الطويل أمام طاولة القص والخياط، وللفساتين المنفوشة المثقلة بالترتر والشك وهي تكاد ينفجر بها المحل، بل وحتى بيت الطين المنهار كأسنان منخورة..

هو لاينظر لأحد، بالكاد يعرف أحد اسمه، والنساء، كل النساء في الحارة لايعرفن له اسماً واحداً، خيّاط كويس، خيّاط كبير، خيّاط حارة، خيّاط أحمد، خياط عبدالله..

كل الأسماء كان يليق به وكل الأسماء كان يجيب عليها فيلتفت، يلتقطُ القماشة ويفردها، وأيادي الحريم من كل لونٍ تتقاطع وتتقاتل في حضرته، تشرحُ الموديل وتفهّمه فيفهمَ دون أن ينبس ببنتِ شفة..

تكلّم عليه الكل، حتى إمام المسجد، الحيرة التي تسيرُ معه كدائرة المغنطيس وهو يختفي من المسجد فيظهرَ في المحل، ويخمدُ في المحل فيضيءَ في المسجد..

كل هذا سحر..

كم عنده من يدٍ ليخيط كل هذه القماشات التي يضيق بها المكان ويتّسع فيسلّمها في أسبوع؟

فتح بجواره ثلاثةُ خيّاطين، جاعوا، و لم تمرَّ بهم امرأةٌ بقماشتها ولا حتى على سبيل الفضول أو الصدقة..

وحينها أجمع رجال الحارة أن الأمر سحرٌ معقود، ينفثه الخيّاط في ثيابهنَّ وبين شكوك قماشاتهن..

ينشره حوله فلا يدري بوجوده أحد..

يطيرُ في سحابات من السحر، وتمسكُ الجنُّ بأطراف منزل الطين فلاينهار فوقه..

يأتي أول أسبوع من رمضان فيوصدُ نافذته، القماشات تتكدس حتى آخر المحل، تصطبغُ برائحة محلّه المتخللّة..

راحات النساء تضرب بيأسٍ على نافذته كأيادي العطاشى، يفتح خمس دقائق ليوبّخهنَّ فتتقاطع الأيدي، وتتناطح الرؤوس من تحت العباءات..

تنظرُ الحارة إلى كل ذلك، ويصفقُ كلٌ يداً بيد، وكل مرة بعد كل صلاة يتفقون على أن يطلبوا منه الرحيل..

يعترضُ واحدهم بأن هذا خطر، وأن على الهيئة أن تتعامل معه وتفكَّ عُقَده..

الآخر يقترح أن يستدعى أهل الجوازات فيكونوا في وجه المدفع..

جاء أهل الهيئة وتوقفوا أمام محلّه وعسّوا وجسّوا، اقتربوا من نافذته ببطء فالتفت ببطء..

نظر إليهم، وأحسَّ واحد منهم أنه يرتفع عن الأرض، الآخر قال بعدما افرنقع الجمس أنه سافر بعقله لدقائق إلى صحراء بعيدة، و لم يشعر بما حوله..

جاءه أهل البلدية ليفحصوا شقوق الطين والباب الردئ المدهون بالأزرق منذ عهود الأولين..

طلبوا إذناً بدخول المحل، فقال مفتِّشهم أن الباب انفتح والخياط في مكانه يخيط ويخيط..

الآخر يقسم أعظم الأيمان أنه رأى المكينة تعمل لوحدها، وأن الباكستاني يكلّم الفستانات فترد، وأنه سمعها تفصح لساناً عربياً مبيناً..

منع الرجال نساءهم من الخياط فتنمَّرنَ، وامتنع أهل السلطات عن أن يتدخّلوا ليقتلعوه من الحارة..

جيبه كان ينتفخ بخمساتٍ وعشراتٍ أثمانُ خياطة أثواب لم تتغير تسعيرتها منذ حط رحاله في الحارة..

حين جاءتْ اللحظة التي هاجمه فيها رجال الجوازات، كان واقفاً كالحصان وهواء مروحةٍ عتيقةٍ يلفح أطراف قميصه الهائل، ويتخلل لحيته الشاسعة..

كان صامتاً كما كان منذ عشرين سنة، حين انطلقتْ عليه صيحاتُ الجوازات، وامتدتْ أيديهم لتفتش الفستانات ومايختبئ فيها..

دخل رجال الحارة وصيحاتهم التي انكتمتْ عشرين عاماً تتكدس وتندعس في شقوق بيت الطين، وتهزُّ الباب الردئ ..

تخاطفتْ أيديهم وأصابعهم ذات الأظافر المتعرجة قماشاتِ الخياط..

مزّقوها ومزقوا مافوق طاولته وتحتها، يبحثون عن سحرٍ وعقد ..

فتحوا مكينة السنجر فوجدوا تحتها كشتبانات من حديد، وميبراً..

أهل الجوازات نثروا صندوقاً فيه أوراق، وصورةٌ لطفلٍ وبنتٍ بجديلةٍ طويلة.. حوالاتٌ وأوراقٌ نقديةٌ مجعدة وصفراء مرّ بها ثلاثة ملوك..

أوراق بها رائحة عرق وأقمشةٌ صغيرةٌ ملفوفةٌ وصررٌ صغيرة...

تراجع الرجال وصياح خوفهم من العقد يحاصر الخياط، وهو يراقب آكلي لحوم البشر يعيثون ويعبثون بدم قلبه.. يصيحون بكلام لايفهمه..

وتقدم أشجعهم وهو ينفث المعوذات على الصرر ويفكها واحداً وراء الآخر..

تناثرتْ إبرٌ صغيرةٌ مرتبةٌ من كل حجمٍ من كل صرّة ..

انتشرتْ على الأرض فتسمّرتْ الأرجل المشهبة المتشطّبة خوفاً .. وبدأتْ تدبُّ فوق الإبر بحذرٍ شديد وهي تنسحبُ من المحل لقليل من الهواء، ثم تقتحمه ..

عرسٌ وحشيٌ لم يفقه منه الخيّاط شيئاً..

لم يكونوا لصوصاً فيقاومهم، لم يكونوا بلطجية ليقاتلهم..

كانوا جيرانه، ورجال أمن يفترض أنهم يردعون من يعبثون به..

لأن يشاركوهم عبثهم..

كانوا ينثرون أمواله وإبره وخيوطه وقماشاته على الأرض..

كانوا يفْرون مايخيط.. وينكثون ماغزل.. وينثرون مانظم..

سحبهُ رجل الجوازات من ياقته ....أخرجه..

شيّعهُ الهائجون إلى مكان يصلبونه فيه..

راقبتُه النساء من خلف النوافذ بأيادٍ عطاش.. وقلوبٍ كسيرة..

راقبتُه العيون يغوصُ بجسده الكهل المترهل في قميصٍ أبيضٍ متهاطلٍ وسروال ... خطواته الكهلة تَنْتُرها أيدي رجال الجوازات وتقفز بها لتسرع...

بياض لحيته وطاقيته يختلط ببياض ثياب مـــن حولـــه، وذراعـــاه لاتتحركان لا أمامه ولاخلفه..

تحيط به الآن وتغلق عليه الثياب المشمرة والسيقان السمراء المغبرة حتى نصفها بالانتقام والدم..

أيدٍ معروقة متعبة ترتفع نصراً وغيرةً وتلتهبُ حماساً..

أجسادٌ متعرّقةٌ كثيرةٌ تتزاحم لترى الساحر المسخوط يُحـــرقُ أو يُحملُ في سيارة الشرطة..

قال الناس فيما بعد أن سيارة الشرطة لم تتحرك..

وبعضهم قال أنه وجد الإبر مغروزة تحت سرير ابنه ...

والصور...والفلوس..وبيت الطين والباب الرديء...كـــل هـــذه الأشياء..

قيل أنهم قرؤوا عليها، فتبخرتْ وتفتَّتْ في الهواء..

أحزان طِمِيَّة(*)

يونيو 2013

صحارانا التي تسرقُ الدم من العروق، تستطيعُ أن تحزن، وتغضب، وتثأر، وتندم..

كل شيءٍ فيها يبدو للناظر وحيداً.. لأول وهلة..

السحالي تظهر واحدةً في العمر.. الثعالب.. تظهر واحداً واحداً..

أما الثعابين، فتتسلَّلُ وتنزلقُ عبر رمالها المحرقة وحيدةً لترمي لعنتها على من جاءتْ ساعته وتمضي..

كم هي عسرةٌ تلك الصحارى بفلسفتها الساخنة..

حتى اللغة وهي تصفها تتردد، وتشعرُ بشيء من الحيرة، وبعدم اللياقة وهي تحاول احتواء ذلك الرمل المرتحل المتشكل بصور أحلام البشر..

تلك الحبات المتلمظة المكتنزة بحرارة الشمس، تطير لتزور أقدام الجبال البعيدة، وتحمل رسائل ونمائم وفضول..

(*) طِمِيَّة: هو مقلع أو فوهة جبل قريب من الطائف.. تسمى رسميا ب(فوهة الوعبة) ويشار إليه شعبيا في القصص على أنه (أنثى)..

عند قدمي طميّة، الجبل الأبيض المبقّع بالسمرة، ترسبت رملتان لاهثتان أخبرتا الجميلة طميّة بأن زلزالاً أتى على والديها وهي نائمةٌ في زمن الجبال..

ارتجَّتِ الصحراء بهما فجعلتهما قاعاً صفصفاً، لم يبق منهما إلا هاتان الرملتان لتحملا النعي ..

أطلقت طميّة حزنها بلغة الجبال، جعلت تحنُّ وترتجف حتى سمعت الأثلات في قدميها صوت ارتجاف الأحجار، وتململ الرملات، وبعضها ببعض..

وماهي إلا أيامٌ ثلاثةٌ حتى تشقق قلبها عن كهوفٍ من الملح، هي رواسبُ دمعها ولوعتها التي لن تجففها السنوات القادمة..

لأن كل شيءٍ في صحارانا يعيش وحده..

عاشتْ طميّة وحدها، جبلاً حزيناً مشقَّق القلب...

حسبتْ الشهور حتى استحالتْ سنين.. والسنين حتى استحالت عقوداً..

والعقود حتى صارت قروناً وأحقاباً...

وشقوق قلبها تزداد ملوحة..

وجفاف الوحدة يسفع قلبها الصامت.. وتترسب عليه ذرائر الرمال حتى تشكلتْ قصائد..

وأنّاتٌ حزينةٌ منغّمةٌ تشبه أصوات القوقس..

جاء الشتاء وكان قلب طميّة قد ترمّد، وصار بحيرة ملحية لاحدود لها..

ثم إنه هبتْ هبّات الربيع..واستيقظت عصافير وطيور وأعراس لاتتكرر إلا كل عام مرة..

ونظرتْ طميّةُ إلى السماء حين قطرتْ أول اللآلىء في ذلك العرس وبللتْ وجهها الملحي الحزين..

مُطِرتْ طميّة أربعة أيام بلياليها.. وفي الليلة الرابعة ومضتْ موجة برق طويلة رأت على ضوئها جبل (قطن)..

وفي قلبها الملحي نبضت جمرة حب جديدة..

مرَّتْ عليها سنةٌ من الشوق والتعب.. وحين جاء موسم المطر مرةً أخرى وومضتْ البرقة... رأتْ حبيبها (قطن) وقد انتقل للجهة اليسرى من السفوح..

مرتْ عليها السنون عقوداً، وهي تتعشّقُ هذا الحبيب..

ينتقل يمنة ويسرة سنة وراء سنة..

حتى مضتْ منها الأشواق وذهبتْ بها كل مذهب..

وحين جفَّتْ أملاحها ذات شتاء تشققتْ منه أصوات العصافير، وناحتْ من هوله الحصاني في بطون الأودية..

نـــزلتْ برقة طويلة نظرت فيها إلى حبيبها (قطن)، فنظر إليهـــا، طالتْ البرقة حتى تبيّن لكل واحدٍ منهما حبٌّ بعمر الجبـــال الطويلـــة الخالدة..

ثم هدأ سوط البرق..

مرّتْ سنةٌ أخرى.. وجـــاء ســـيف الرعـــدة يفلّـــقُ أجـــواف السحاب..ويفرغ أرحامها من ألسنة البرق لتهطل على رأس طميّة..

لترى قطن في مكانه لم يراوح خطوة واحدة..وقـــد مكـــث في مكانه سنةً خلف سنة لايتزحزح، انتظاراً للحظة يخطفُ فيها نظرة.

لم تتمالك طميّةُ نفسها.. واتخذتْ قراراً بأن تهرع إلى حبيبها..

لكن الرملات في أسفلها غنّين لها بأن تصبر سنة أخرى، ولـــئن كان (قطن) يريدها، فهو لن يبارح مكانه..

وحين دفقتْ عليها دفقة البرق الأخيرة ورأتْ حبيبها ينظر إليها، قفزتْ من مكانها..وزحفتْ..

بأقدام الجبال، وزفّتها أحجارها يزغردن بأغنيات الحب الصحراوية..وقلوبهن تقطر غيرةً وحسداً..

وارتعشتْ الرملات الغيورات حين غادرت طميّة وولتْ أدبارها..

ولأن ومضة العشق الوحيدة في تلك الصحارى قد صارت غيظاً لكل شيء فيها، فقد غارتْ السحالي، والثعالب، والأفاعي.. وحتى الأثلاتُ والعواسج..

تناقلتْ الرياح نمائم الصحراء وغيرها...

ووصلت الأنباء إلى ابن عم طميّة وهي ماتزال تزحف إلى حبيبها..

وما أن وصلته رسالة الرياح حتى انتفضتْ أحجاره وانفلقتْ صدوعه عن صيحة غيرةٍ عظيمة، وهو يراقب ابنة العم تسير إلى فضيحةٍ بين عشائر الجبال..

أسرّ إلى صدوعه بألمه، فتطوّعتْ إحدى أفاعيه لتحسم الأمر..

وذهبتْ، وشرُّها يفوح وترتجف منه حبات الرمال وهي تزحف على جنبها بسرعة البرق..

وحين وصلتْ إلى قدم طميّة حيث كانتْ أغنيات عشقها ترقّص كلما حولها..

تشبثتْ بساقها أم جنيب، وسكبتْ مافي جوفها من كل الشرور التي تكفي لإهلاك العالم كله..

وحيث كان الحبيب (قطن) يتزيّن بقطرات الأمطار وينتظر قدوم حبيبته، دوّت صيحة ألمٍ ويأسٍ عظيمة، ملأتْ رؤوس الجبال، وانتفضتْ لأجلها الطيور والتفتتْ لها أغصان الأشجار..

هوتْ طميّة في مكانها هامدةً، وأم جنيب تنسحبُ وتتراجع وتراقب الدمار الذي أحدثه سواد قلبها...

انسكب سُمُّها وتمدَّد في سيقان العاشقة، ثم امتدتْ سحابة السم السوداء -التي منها تستمد أم جنيب سرعتها- وطبعتْ عروق الجبل، وحصيانه المذعورة... ورملاته الغيورة...

هرعتْ أم جنيب تهربُ من بحيرة سمِّها الأسود ولم تستطع.. بل غطستْ وتدحرجتْ في سحابة السم حتى رأسها.. وتجمّد كل شيء فيها ماعدا عينيها الكريهتين وهما تراقبان ماسينتهي به العالم..

اسودّتْ طمية واسودّ ماحولها... وحين وصل السم إلى بحيرة الملح في وعبتها تفتت وأذعن..

ولكن طميّة لم تعد تبكي.. ولم تعد أنّاتها الجبلية تشجي الطيور، ولا تستجلبُ دموع السحائب..

لم يعد هناك أي صوتٍ في رؤوس تلكم الجبال..

إجهاض

إبريل 2012

عروقنا نحن النساء معابرُ لقصصٍ كثيرة، منها قصص حيـــواتٍ لم تكتب، وقصصٌ لكائنات تكوّنت في أحشائنا ثم قررت أن تتخلى عنا، وتتركنا وحدنا لخيبةٍ طويلة..

ذاكرتي يا من ترنّحتْ بكل الهرمونات والاضطرابات التي تتكدس وتتدفق في هذه العروق الطويلة..

مرةً أخرى تنخرين وتتراجعين، وكأنكِ تعلنين الخزي والخيبـــة في فشلي الثاني..

هل أنا ألومكِ ياذاكرتي؟ ألوم نفسي؟ ألوم أي أحد؟

لا لستُ ألوم أحداً والله.. ويعلم الله وحده كم رضيت..

بل كم امتننتُ وبكيتُ شكراً له سبحانه أن كانت أقداري لطيفةً لا ألم فيها..

اللهم سوى كيّة مفاجأة توقف نبض الجنين..

لكن ما سرُّ هذا الشعور بالخزي..؟

مالذي يجعلني أسير بين الناس، أخبرهم بفشلي الثاني ثم أندم...

ثم أتوقف كل مرة عن قص حكايتي، حين أرى تعابير الصـــدمة على وجوه الآخرين..

وكأنني مسؤولة عن تعابير الحزن والشفقة التي تتمعر بها وجوههم حالما أخيب ظنونهم واخبرهم بحقيقة ما جرى لي...

هل علي أن أكون مذنبةً لأشعر بالخزي؟ لا أدري....

***

ذاكرتي تؤلمني..

عروق في أسفل جمجمتي تؤلم، تماماً كألم الإجهاض الماضي..

من المهم أن تؤلمكِ ذاكرتكِ بعد إجهاض...

من المهم أن تغيب في مساحات أرشيفاتك الكبيرة صفحات كثيرة....

ربما تفرغين أدراج خزاناتكِ لمزيد من الملابس الجديدة..

وذاكرتي تفرغ أدراجها لمزيد من القصص والأيام القادمة..

لكن ذاكرتي رغم أنها تؤلمني، وعروقي رغم أنها مكتظة بالنسيان والفوضى، رغم ذلك لم يفلحا في انتزاع شعور الخزي من عقلي..

لا أريد الحديث عن ذلك لو سمحتم..

***

لست متأكدة من شيء..

عدتُ من عملي و لم أصلّ الظهر بعد..

متأكدةٌ أني غسلتُ قدمي للصلاة، وأتذكر ملابسي ترشح بالوضوء..

متأكدةٌ أني وضعتُ الغداء على الفرن وخفضت الحرارة..
متأكدةٌ أني جلستُ على حاسوبـــي..
لكني لستُ متأكدةً أني صليتُ الظهر..
هل صليت؟
كم هو بائسٌ شعور امرأةٍ تمضي من وقتها الكثير لتتذكر جـــدول رحلة دقائقها وساعاتها؟
وهل كان في أجندتها صلاة أم لا..

***

لهفةٌ للحياة، كلهفة ناجٍ من الغرق..
بعد تجربة الموت... يتلهفُ كل شيء فيّ للحياة..
أتلهّف لأن أكون جميلة..ذكية ..رشيقة..
أتلهّف ..وكان الإنسان عجولا...

***

مهم جدا أن تتوجع بقدر كافٍ بعد أي إصابة..
لكن دقائق انتظار الشفاء مهما كانت قصيرة إلا أنها تطول..
تبقى فيها ساكناً لا تتحرك فتطول..
كل إنسان بعد إصابته هو شرنقة...
أنا شرنقة...
أنتظر وقتي ووقت استواء أجنحتي حتى أطير..
ربما يطول انتظاري ولكن غداً سيأتي بإذن الله..

في كل ما مررتُ به تعلمـــتُ أن أكـــون شـــكورة وأن أنحـــر الألم...نحرا..بلا رحمة..

من قال أن الأمل وهم؟؟

ومن قال أن إيماننا -ذاك الذي يزداد وينقص- لا يمكنه أن يفعل شيئا مهما كان ضعيفا؟؟

من قال أن هالاتنا الجميلة من النور لا تستطيع أن تحجب عنا آلام الحياة وتخفف عنا وجعها؟؟

من قال أن حياتنا مُرَّة؟؟

من قال أن غدا لن يأتي؟؟